تأملات في الحراك الشبابي الفلسطيني

عبد الله البياري*

تأسست النظرة العربية إلى "الفلسطيني" على ديناميات خطابية تضعه في أحد موضعين: مَوضع مَن باع أرضه وعاش مغتربًا (وليس منفيًّا) في وضع مادّيّ أفضل من أهل البلد /المنفى، بل وأكثر، انتفع من وضعه الاقتصادي /السياسي ليضمن ديمومة البيعة، أو موضع مَن بات متأسرلًا لدرجة لا تفرقه فيها عن باقي النسيج اليهودي ضمن استدعاءات نمطية فوتوغرافية أوروبية بيضاء، وصلت بإحدى القنوات الإخبارية العربية ("العربية") وصف "فلسطينيي الداخل" بأنهم "إسرائيليون من أصول عربية". وبين تَيْنِك الصورتين المتخيلتين، اللتين أسست لهما نكبات متتالية في الواقع العربي ليس أقلها اتفاقيات كامب ديفيد وأوسلو ووادي عربة، وتنامي مفهوم "الدولة القُطرية" (الدولة القومية) التي ترى القضية الفلسطينية حملًا غير بنيوي؛ يظل من الجلي في عدم موضوعية تلك النظرة وتحيزها أنها أغفلت -في ما أغفلت- من حسابها تمامًا واقع "فلسطينيي الداخل المحتل"، وتحديدًا أراضي الـ 48؛ وبالتالي يغدو التأمل في الحراكات الاجتماعية والسياسية (وليس فقط التنظيمات السياسية والحزبية) الخاصة بالفلسطيني في مكانه /فلسطين مُدافعًا عن زمانه الفلسطيني /هُويّته مهمًّا، لا لأن تلك "الجماعة الفلسطينية" (بالمنطق الأنثروبولوجي) منوط بها مواجهة الإزاحة الاحتلالية فقط، ولكنها تواجه الإزاحة التي يتعرض لها الإنسان والزمان والمكان الفلسطيني من الوعي والإدراك العربي.

فـَ "الجماعة الفلسطينية" في الداخل المحتل تقع على خط المواجهة الدائم مع منظومة الاحتلال /الإحلال التي تزداد تغوُّلًا، يعيد تفاصيل بنيوية من الحكم العسكري، ضدهم، كما تمثل تمظهرًا للتطورات

السوسيولوجية للمُستعمَر، كمجتمع واقع تحت الاحتلال وأنظمة الضبط والرقابة والنفي والهندسة، ومُقحم في عملية سياسية حداثية يقع هو على الطرف الأدنى منها، كما أنه خضع بدرجات مختلفة لحدود القبائلية والعشائرية والعائلية والحزبية (ويمكن أن نضيف إليها الاقتصادية) في التعبير والفعل.

ومع تزايد المواجهات مع المنظومة الاستعمارية، تعرّف فلسطينيو الداخل المحتل على مَواطن قوتهم. ويمكن إحالة تغوُّل الدولة ضد تلك الجماعة إلى كونها (أي الجماعة الفلسطينية) باتت أقدر على تأكيد ذاتها الجمعية، لا فقط من خلال الحراكات والعمل السياسي الحزبي المُمَأْسَس، والذي يعمل في فضاء المؤسسة الإسرائيلية السياسية -وإن عارضها من داخلها-، وإنّما جاء التأكيد من خلال وجود حراكات شبابية على الأرض، تقوم على أساسين: أوّلهما خلق تجمع ممثل للجماعة الفلسطينية غير مُمَأْسَس، وغير هيراركيّ، قليلة هي مشتركاته مع المنظومة المؤسسية السياسية الإسرائيلية من حيث البنية الإجرائية، ممّا ضمن له ديناميكية وفاعلية أكبر في التأثير، كما حدث في مواجهة مشروع برافر، وهي المواجهة الحراكية التي تفتح بابًا لثاني الأساسين: قدرته العالية على استغلال مفهوم "الفضاء العام" المديني المحتل لصالحه من خلال كسر نفي الفلسطيني عن حيّز الحداثة في المدينة الإسرائيلية، كما حدث في مواجهات "برافر" وَ "دعم غزة" الأخيرة، حيث نُقلت المواجهات إلى المكان الحداثي من مدينة حيفا (شارع المقاهي، وحدائق البهائيين)، وهو ما كسر السرد المديني الإسرائيلي القائم على تغييب الفلسطيني /العربي من الحداثة والتقدُّم الإسرائيليَّيْن، اللذين قاما على عملية احتلال ثم إحلال، وبينهما نفي وطمس للفلسطيني /العربي (بداية من اللغة إلى المكان).

ولا تنجو هذه القراءة في السياق الفلسطيني عمومًا، والفلسطيني في الداخل المحتل خصوصًا، من عقدة "كاريزما الفرد" التي تُعَدّ إفرازًا لكاريزما الحزب والجماعة والقبيلة والعشيرة والحركة والمنطقة والعائلة، التي تتمثل في فرد جامع /رأس هرم لهم. ولكن يبدو أن الحراك الشبابي قد تجاوز جزئيًّا بنيوية تلك الإشكالية في الفعل المواجهاتيّ (دون تمام التحرر منها)، وذلك من خلال تراكم الأسئلة والمواقف الجذرية التي يواجهها ذلك الفرد في السياق الداخلي /الفلسطيني أو الخارجي /العربي، وحالة الحوار حولها، في

فضاء المؤسسة الحزبية العائلية العشائرية المناطقية وغيرها. ولكن تظل تلك الكاريزما عامل مخاطرة بإمكانية الطعن (في الفرد) /الشخصنة (الفكرة)، أو إعادة توجيه الحراك /الفعل من خلاله، أو توجيهه.

في هذا المشهد القبْليّ (أي السابق على الحراك) للحراك في الداخل المحتل، أي "ما قبل" لحظة "الحراك" على الأرض، تجب الإشارة إلى أن الحامل التاريخي الحراكي المواجهاتيّ -وإن بات حاضرًا في الثقافة الفلسطينية الشبابية، وحاصلًا على جرعة من القوة مع الحراك الشبابي الثوري العربي (برغم كَبْوَته الأليمة)- قد تعرّض للكثير من الأزمات الإدراكية في العقل الفلسطيني كاملًا، بسبب الانحرافات التي أسست لها عمليات تسييس وشخصنة النضال والثورة والمقاومة والمواجهة، كالمواقف المؤدلجة والمهادنة لبعض النواب والأحزاب السياسية أمام تحديات المواجهة على أنواعها. ما يجب أن يدفع الحراك الشبابيّ إلى أن يطرح تساؤلات سياسية وتنظيمية وعملية عن الأهداف والواقع، والوجهة التي يريد الفلسطيني "المتحرك" (وهو نوعية "الفلسطيني" وَ "الحركة" اللذين لا تريدهما إسرائيل) أن يذهب إليها.

يجب وضع كل ذلك في الاعتبار، لدى تأمُّل بنية المنظومة الاستعمارية، وتنامي دور فلسطينيّي الداخل المحتل المؤثر إستراتيجيًّا وسياسيًّا ومجتمعيًّا في المواجهة الداخلية والخارجية معها. وهو ما أشارت إليه مراكز الأبحاث وصنع القرار والخطاب الإعلامي الإسرائيلي، مؤخرًا.

ما إن يبدأ الفلسطيني في التحرك، حتى يواجهه الإسرائيلي بطريقتين، إحداهما مباشرة كما حدث في مواجهات حيفا المنتفضة ضد برافر والعدوان والمجزرة الإسرائيلية على غزة، وأخرى موازية وهي استخدام نفس النسيج الفلسطيني الذي خرج منه ذاك الفلسطيني "المتحرك"؛ ففي قراءة لبعض مواقف رؤساء السلطات المحلية وبعض القيادات العربية التقليدية ورجال الدين، في الإمكان ملاحظة تنامي نبرة التهدئة، بل إن بعضهم يستدعي ديناميات الخطاب الإسرائيلي كالقول بِـ "عبثية المقاومة"، وصولًا إلى الأسرلة، في مواجهة حراكات شبابية مضادة للمنظومة الاستعمارية، كموقف رجل الدين المسيحي "جبرائيل ندّاف" أو وجهاء الدروز، أو حتى رئيس بلدية الناصرة السابق في استقباله لبيريز، ولجنة المتابعة العليا وإشكاليّتها، وغيرهم. فيغدو الحراك الشبابي "المتحرك"، مُواجَهًا بِبنْية العائلة /القبيلة /الطائفة

/الدين /الحزب /التنظيم المقيدة له، باعتبارها أنماطًا مختلفة من السلطة غير المباشرة، وهو ما جعل الهُويّة الجمعيّة الفلسطينية شبيهة بالبانتوستانات (المَعازل) التكافلية النفعية؛ لذا وجب على الحراك الشبابي أن يكون حراكًا "ممثلًا" للفلسطيني ووعيه بهُويّته وموقعها كمجتمع مُستعمَر واقع تحت سلطة الاحتلال، وبالتالي متفهمًا لتفاصيل تفكيك الذات الجمعية له وإعادة تشكيلها استعماريًّا، وذلك بالتوازي مع أن يكون حراكًا "ناظِمًا" للوجود الفلسطيني ودوره في المواجهة، ولعل هذا الاتزان بين "التمثيل" وَ "التنظيم" هو ما يحمي الحراك من أن يكون حالة حوار (أو غضب -في أفضل وصف) فلسطينية داخلية تستدعي أنماطًا خطابية تفريقية من مزايدات واتهام بالعمالة والتخوين، وطائفية وأيديولوجية، وغيرها، ومن أن يكون غير ذي فاعلية، أو سابحًا في الفضاء ومنفصلًا عن نسيجه الفلسطيني، غير قادر على أن يجسُر الهوة الذاتية التي يحدثها الإسرائيلي في الذات الفلسطينية؛ فإن لم يوجَّه الغضب المندلع في طريق النضال، على طريق القنوات السياسية والتنظيمية والتثقيفية والتوعوية، ففي ذلك مقتلة له (كما حدث في مواجهة بعض تجار عكا)، كما أنه إن تُرك دونما توسيع الشرائح المشارِكة وصياغة خطاب جمعي فلسطيني لا يستعير ديناميات الخطاب الإسرائيلي، بات تنفيس الغضب وَ/أو شيطنته أهون الطرق لمعاكسة مفعوله لا إبطاله فقط.

وهنا وجب على الحراك الشبابي أن يكون عنيدًا في إصراره على مَطالبه العادلة والحقة، لتبطل مفعول قلة الإيمان المتوارثة تجاه الحراكات الشبابية عمومًا، ولا سيّما إذا أشرنا إلى أن الحراكات الشبابية تملك درجة وعي عالية بتفاصيل وتراكبيّة وتعقيد بنية الاحتلال وبهشاشة النظام الذي تواجهه، وإن كان الوعي لا يكفي لضمان نتيجة المواجهة، فإنه عامل مهم بجانب التنظيم والنقد؛ وأن الإصرار على مطلبٍ ما سيؤدي إلى تفكك المنظومة وتعريتها كاملةً، وهو ما يجعل التساؤل عن مدى وهدف المواجهة عضويًّا.

* **د. عبد الله البياري**، طبيب وباحث في علم الإناسة الثقافة، والنقد الأدبي والدراسات الثقافية.